[۴]

اللبّ في حدوث العالم

تصحيح و تحقيق

مهدی حاجیان

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً لمن كان لم يزل بلا زمان ولا مكان والآن كما عليه كان، والصلاة على من كان نبيّاً وآدم بين الماء والطين[1] وآله الهادين المهديّين.

فيقول المكادح إلى الحقّ والهدى محسن بن مرتضى ـ وفّقه الله لما يحبّ ويرضى ـ: لمّا كان معنى حدوث العالم خافياً على طائفة من فحول العلماء فضلاً عن الطلّاب، رأيت أن أكشف عنه نقاب الارتياب وأرفع عنه أغشية[2] الحجاب بالإتيان بلبّ القول فيه، كما هو دأبي في كلّ باب والله يهدي من يشاء إلى الحقّ والصواب.

[١] تمهيد

[في سبب وقوع الناس في القول بالحدوث الزماني للعالم]

إنّ قوماً من الغاغة[3] زعموا أنّ الله عزّ وجلّ كان لم يزل في امتداد موهوم غير متناه في طرف الأزل. وكان حيناً من الدهر عاطلاً عن الجود، فارغاً عن إفاضة الوجود، ثمّ شرع في الايجاد، فكان بينه وبين أصل الايجاد امتداد وأيّ امتداد.

وإنّما أوقعهم في ذلك حسبانهم: أنّ حدوث العالم الثابت في الشرائع عبارة عن تناهي زمانه في الأزل، وانقطاع أوانه الأوّل.

قالوا: لو كان زمان العالم غير متناه في ما مضى، لكان قديماً مستغنياً عن الصانع تعالى.

وهذا مع تناقضه وهم نشأ من سوء فهمهم، أمّا التناقض؛ فلأنّ الامتداد المذكور إن كان يقبل التجزية ويدخله الزيادة والنقصان، فهو الزمان بعينه. وإلّا فهو لا شيء محض. وأمّا الوهم؛ فلأنّ سبب افتقار العالم إلى الصانع إنّما هو هلاكه الذاتي وفقره الجبلي واتّصافه بالإمكان، لا نهاية

---

١ ـ إشارة إلى قول رسول الله ﷺ: «كنت نبيّاً وآدم بين الماء والطين». [المناقب لابن شهر آشوب، ج ١، ص ٢١٤؛ عوالي اللئالي، ج ٤، ص ١٢١]

٢ ـ أغشية: جمع الغشاء، ما يغشي الشيء ويغطّيه.

٣ ـ الغاغة من الناس: هم الكثير المختلطون من الناس، واحده الغاغ.

الزمان. وليس الزمان إلّا عدد حركة الفلك، كما أنّ المكان ليس إلّا ما أحاط بالفلك أو ملأه الفلك، فإذا لم يكن فلك، فلا زمان ولا مكان؛ فلمّا أبدع الله عزّ وجلّ الفلك وما فيه من الأجسام وأداره وجد المكان والزمان. وذلك بعد ما أبدع جلّ ذكره كثيراً من الأرواح والأملاك وما عمّر به الأفلاك. فالزمان إنّما حدث بعد حصول كرائم الموجودات وعظائمها، وبعد حصول أركان المخلوقات ودعائمها.

وقد ثبت ذلك بالبراهين وقوائمها، فالتقدّم الزماني منتف في حقّ الله سبحانه وفي حقّ ابتداء العالم، والتعطيل غير جائز في حقّ مفيض الجود والكرم، والفراغ ممتنع عن إفاضة الوجود، والبخل محال عن الجواد عن الجود، تلك مقالة اليهود حيث قالوا: «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ»[1]، وجوده مقدّس عن الزمان وكيف يتقيّد خالق الزمان بالزمان وهو موجود بذاته لذاته غير مفتقر إلى شيء من مخلوقاته، واحد أحد متوحّد من غير قلّة، ليس بمعلول ولا علّة؛ بل هو خالق المعلولات والعلل وجاعل الثواني والأول، كذلك لا يزال ولم يزل، والعالم موجود بالله عزّ وجلّ لا بذاته، مرتبط ذاته بذات الله وصفاته، منزّه ابتداؤه عن الزمان وأوقاته، كذلك لا يزال ولم يزل.

[۲] فصل
[في معنى الأزل]

ومنهم من سمّى ذلك الامتداد بالأزل ونعت به الربّ تعالى وجلّ. فقال له: الأزلي، وزعم أنّ نسبته إلى الله تعالى كنسبة الزمان إلينا، فهو في الأزل، كما نحن في الزمان.

فيقال له: لا يخلو هذا الأزل الذي نسبته إلى الله تعالى، إمّا أن يكون وجوداً أو عدماً. فإن كان عدماً، فهو لا شيء محض ويمتنع أن ينعت به الباري سبحانه. وإن كان وجوداً، فهو إمّا أن يكون نفس الباري أو غيره.

فإن قال: إنّه نفس الباري، فقد وافقنا في أن لا قديم إلّا الله سبحانه وإن أخطأ في التسمية

---

۱ ـ المائدة: ۶۴.

والمعنى.

وإن قال: إنّه غير الباري، فلا يخلو إمّا أن يكون قائماً بنفسه أو بغيره. وعلى الأوّل يبطل الوحدانية لله سبحانه، وعلى الثاني لا يخلو ذلك الغير إمّا أن يكون نفس الباري أم لا؛ فإن كان نفس الباري، فهو له كعلمه وقدرته وسائر صفاته الأزلية، فيرجع منعوتاً بالأزل. والكلام في الأزل المنعوت به الأزل، كالكلام في الأزل الأول ويتسلسل. وإن كان غير الباري، فقد أثبت قديماً آخر وأبطل الوحدانية. على أنّ ذلك الذي يقوم به الأزل هو الموصوف بالأزلي لا الباري؛ لأنّ المعاني إنّما توجب أحكامها لمن قامت به، فبطل وصفه الباري بالأزلي.

إن قلت: فما معنى الأزل؟

فاعلم، أنّ الأزل عبارة عن معقول القبلية المحكوم بها الله عزّ وجلّ من حيث تقدّمه على الحادثات بزمان متطاول العهد، فيحكم له بالأزل الآن كما كان يحكم له به قبل وجودنا لم يتغيّر عن أزليّته ولا يزال أزله في أبد الآباد، فهو حكم له ذاتي استحقّه لكماله ليس لشيء من المخلوقات فيه وجود لا حكماً ولا عيناً. وهو لا يوصف بالوجود؛ لأنّه أمر حكمي لا عيني، ولا بالعدم؛ لأنّه يقبل النسبة والحكم، والعدم المحض لا يقبلها. ولك أن تجعله نعتاً سلبياً وتفسّره بانتفاء البدأ عن وجوده عزّ وجلّ وانتفاء مسبوقيّته بالعدم في نفس قبليّته على العالم، فيرجع معنى القدم.

وإذا تمهّد هذا، فلنكشف القناع[1] عن وجه المقصود، فألق سمعك وأنت شهيد[2].

[٣] أصل
[لا معنى للحدوث في الأخبار سوى أنّ للعالم محدثاً أحدثه من صرف الليس]

قد ثبت في القواعد الشرائع واستقام في قوانين الحكمة، كما يظهر من تتبّع الأخبار واقتضاء الآثار أن لا معنى لحدوث العالم سوى أنّ له محدثاً أحدثه من صرف الليس وبحت

---

١ ـ القناع: ما تغطّى به المرأة رأسها.

٢ ـ إشارة إلى قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ». [ق: ٣٧]

العدم وأن لا مدخل لتناهي سلسلة الزمان في حدوثه ولا للّا تناهيه في القدم، فإنّ صاحب الشرع وأوصيائه ـ صلوات الله عليهم ـ كلّما سئلوا عن الدليل على حدوث العالم أخذوا يستدلّون على إثبات الحدوث ووجود الصانع، لا على تناهي زمان العالم.

وإن كان ذلك أيضاً حقّاً والبرهان عليه قائماً، إلّا أنّه حديث آخر لا مدخل له في الحدوث، والإحداث بالنسبة إلى العالم. وذلك لأنّ الآجال تنتهي في المخلوق بانتهاء المدد، وأمّا الخلق فمع الأنفاس يتجدّد. فمعنى حدوث العالم ليس إلّا أنّ فاطره عزّ وجلّ شقّ غسق[۱] ليل عدمه بفلق[۲] نهار الوجود، ومبدعه سبحانه أظهر صنعه في خفاء الليس إلى فضاء الأيس والشهود، وموجده تعالى أبرز غيبه إلى عرصة الظهور والعيان بعد ما كان كامناً تحت سرادقات غيب الإمكان، وخالقه عزّ وجلّ دلع[۳] لسان صباح وجوده بنطق تبلّجه[۴] وسرح قطع ليل عدمه المظلم بغياهب[۵] تلجلجه[۶]، وصانعه جلّ ذكره شعشع ضياء شمس إيداعه بنور تأجّجه[۷] وأتقن صنع فلك تكوينه في مقادير تبرّجه، دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وأظهر صفاته في عجائب مصنوعاته، قرب من خواطر الظنون وبعد عن ملاحظة العيون وعلم بما كان قبل أن يكون[۸].

فإن أردت أن تطّلع على مائيّة هذا الحدوث والتأخّر، فاستمع.

---

۱ ـ الغسق: ظلمة أوّل الليل.

۲ ـ الفلق: الصبح.

۳ ـ دلع لسانه: أخرجه من فمه.

۴ ـ تبلّج إليه: ضحك وهشّ. وتبلّج الصبح: أشرق وأضاء.

۵ ـ غياهب: جمع الغيهب، الظلمة.

۶ ـ التلجلج: التردّد والاضطراب. وغياهب تلجلجه، كناية من شدّة الظلمة، كأنّها تموج وتتحرّك.

۷ ـ تأجّج: التهب. وتأجّجت النار: اشتدّ حرّها.

۸ ـ في بحار الأنوار، ج ۸۴، ص ۳۳۹، ح ۹۱: كان أمير المؤمنين عليه السلام يدعو بعد ركعتي الفجر بهذا الدعاء: «بسم الله الرحمن الرحيم، اللهمّ يا من دلع لسان الصباح بنطق تبلّجه وسرح قطع الليل المظلم بغياهب تلجلجه وأتقن صنع الفلك الدوّار في مقادير تبرّجه وشعشع ضياء الشمس بنور تأجّجه، يا من دلّ على ذاته بذاته وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته وجلّ عن ملائمة كيفيّاته، يا من قرب من خطرات الظنون وبعد عن لحظات العيون وعلم بما كان قبل أن يكون ...».

[٤] أصل

[في معنى الحدوث]

اعلم، أنّ للحدوث معنيين: أحدهما، الحدوث الذاتي وهو أن يكون ذات الحادث مسبوقاً بذات المحدث. والآخر، الحدوث الزماني وهو أن يكون زمان وجود الحادث مسبوقاً بزمان عدمه.

والمعنى الأوّل يجري في كلّ ما سوى الله، وهو ثابت في كلّ ما يجري فيه. والمعنى الثاني إنّما يجري في ما يدخل تحت الزمان دون ما تقدّم على الزمان، وهو أيضاً ثابت في كلّ ما يجري فيه، لا يشذّ عنه شاذّ. ولنبدأ أوّلاً ببيان المعنى الأوّل وإثباته في كلّ ما سوى الله، ثمّ نردفه ببيان الثاني[١] وإثباته في جميع ما يجري، فانصت.

[٥] أصل

[في حدوث الذاتي]

المصنوع يمتنع أن يكون في مرتبة ذات الصانع، لأنّ معنى الفاعلية والمفعولية ليس إلّا تقدّم ذات على ذات، توجد الثانية من الأولى. ولو كانتا معاً لكان الفعل تحصيلاً للحاصل، فكان الصانع في أزل قدمه والمصنوع بعد في حيّز عدمه، فكان الصانع ولا مصنوع، ثمّ حدث المصنوع بإحداث الصانع إيّاه. وبهذا ثبت حدوث العالم بالمعنى الأوّل، إذ ثبت وجود الصانع بالفطر والنظر والعبر.

وهذا معنى حديث: «كان الله ولم يكن معه شيء»، ومعنى قول من قال: «الآن كما عليه كان»[٢]. فمعنى «كان» هنا معناها في قوله عزّ وجلّ: «وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً»[٣]، فهو

---

١ ـ المعنى الثاني يجيء في الأصل العاشر.

٢ ـ في حاشية نسخة: نسب هذا القول إلى بعض الحكماء. قال الجنيد عند سماعه لهذا الحديث: «والآن كما كان» [راجع: شرح فصوص الحكم للقيصري، ص ٣٩٠] وكأنّه قد أخذ من أهل بيت العلم والحكمة والعصمة عليهم السلام. فقد روي عن مولانا وإمامنا وسيّدنا الإمام الكاظم عليه السلام. أشار إلى الحديث في بحار الأنوار عنه عليه السلام - «إنّ الله تبارك وتعالى كان لم يزل بلا زمان ولا مكان وهو الآن كما كان». [بحار الأنوار، ج ٣، ص ٣٢٧]

٣ ـ النساء: ١٧.

منسلخ عن معنى الماضي؛ بل عن مطلق الزمان.

[٦] أصل

[في أن لا تقدّم أشرف من تقدّم الفاعل على مفعوله]

هذا التقدّم الذي يكون للفاعل على مفعوله، هو التقدّم الحقيقي الذاتي الذي لا تقدّم أشرف منه ولا في مرتبته في الشرف، إذ لا ملاك لهذا التقدّم سوى ذات الفاعل بذاته، ولا يفتقر المتقدّم في تقدّمه إلى واسطة تكون علّة لتقدّمه.

وكذا التأخّر الذي بإزائه، هو التأخّر الذاتي الحقيقي الذي لا تأخّر أخسّ منه، ولا في مرتبته في الخسّة. إذ لا ملاك لتأخّره سوى ذاته بذاته من دون واسطة. فمن زعم أنّه فهم معنى هذا التقدّم والتأخّر، ثمّ زعم أنّ الله سبحانه والعالم كانا معين بحسب الذات أو بحسب الزمان أو زعم أنّ العالم قديم بحسب الزمان أو كان مع الله في الزمان، فما فهم معنى الباري ولا العالم ولا مفهوم الحدوث ولا القدم ولا معنى التقدّم والتأخّر والمعيّة لا الذاتية ولا الزمانية ولا تصوّر معنى الزمان، مع أنّه فرض وجود الباري والعالم في الزمان. وما عرف تقدّسهما عن الزمان[١].

[٧] وصل

[الأوليّة والآخريّة بالنسبة إلى العالم وإلى الله]

قد تحقّق ممّا قرّرنا أنّ السؤال بـ «متى» ساقط عن بدو العالم، كما هو ساقط عن وجود الحقّ المنعوت بالقدم. وأنّ قدم الحقّ ليس بتطاول مرور الأزمنة والأوقات؛ بل إنّما هو بالوجوب بالذات وأنّه كما لم يدخل على الحقّ الواجب وجوده في إيجاده العالم وصف يزيله عن وجوب وجوده لذاته، كذلك لم يدخل على الممكن في وجوده بعد عدمه صفة تزيله عن إمكانه لذاته. فأوّلية العالم وآخريّته أمر إضافي؛ فالأوّل من العالم بالنسبة إلى ما يخلق بعده، والآخر من العالم

١ ـ راجع: قرّة العيون، المقالة الخامسة، كلمة في حدوث العالم.

بالنسبة إلى ما خلق قبله.

وليس كذلك معقوليّة اسم الله بالأوّل والآخر والظاهر والباطن، فإنّ العالم يتعدّد، والحقّ واحد لا يتعدّد. ولا يصحّ أن يكون الحقّ أوّلاً لنا، فإنّ رتبته لا تناسب رتبتنا ولا تقبل رتبتنا أوّليته. ولو قبلت، لاستحالة علينا اسم الأوّلية؛ بل كان ينطلق[1] علينا اسم الآخرية لأوّليته ولسنا بثان له تعالى عن ذلك، فليس هو بأوّل لنا. فلهذا كانت عين أوّليته عين آخريّته وعين ظاهريته عين باطنيته.

وهذا المدرك عزيز المنال لا تصل إليه أيدي كثير من العقول فضلاً عن الوهم والخيال، ورزقك الله أن تنال.

والآن أراك تشتهي أن تعرف كيفية هذا الإحداث والإبداع والصنع والاختراع، ولا أراك تستطيع معي صبراً. إن جئتك بمرّ الحقّ، فلنأت بلمعة تمثيلية تكسر سورة استبعادك المطلق، فاستمع لما يتلى عليك، فخذه إليك.

[٨] أصل
[في فيضه تعالى على الموجودات]

كلّ موجود تامّ، فإنّه يفيض على ما دونه ممّا هو في جوهريّته وصورته المقوّمة لذاته ما لو أمسك عنه لبطل ذلك الفيض، مثال ذلك النار؛ فإنّها يفيض على ما حولها من الأجسام التسخين والحرارة وهي جوهريتها والصورة المقوّمة لها، ومتى لم يتواتر منها الحرارة متّصلاً عدمت وبطلت، إذ يضمحلّ الأولى منها فالأولى. وهكذا يفيض من الماء الرطوبة والبلل على الأجسام المجاورة له. والرطوبة هي جوهرية الماء والصورة المقوّمة لذاته، فما لم تكن متّصلة إلى الحل بطلت عنه واضمحلّت. وهكذا يفيض من الشمس النور والضياء على الأرض والهواء وهو جوهري لها، فإذا حجز بينهما حاجز اضمحلّ الضوء وبطل. وهكذا تفيض من

---

١ ـ خ ل: يطلق.

الروح الحياة على البدن وهي جوهرية لها، فإذا فارقت الروح البدن بطلت حياة الجسد من ساعته واضمحلّت.

وذلك لأنّ الفيض مادام متواتراً متّصلاً دائماً دام المفاض عليه، فإن انقطع انقطع. فهكذا حكم وجود العالم من الباري سبحانه الذي هو وجود بحت ووجوب صرف، على أنّ وجود هذه الأفعال ليست من هذه المخلوقات؛ بل هي أيضاً من الله عزّ وجلّ وإنّما هي معدّات للقابلات والإفاضة من خالقها. -جلّ صنعه عن المثال، كما جلّ ذاته عن الوهم والخيال.

[٩] وصل

[في أن لا استقلال للعالم من الباري سبحانه]

إنّ أكثر الناس يزعمون أنّ وجود العالم من الباري عزّ ذكره، كوجود الدار من البنّاء المستقل بنيانها المستغنية عن البنّاء بعد فراغه. وحاشا أن يكون الأمر كما زعموا، لأنّ البنّاء مركّب للدّار ومؤلّف لها عن أشياء موجودة أعيانها قائمة ذواتها. وليس الإبداع والاختراع تركيب ولا تأليف، بل إحداث وإخراج من العدم.

وليس أيضاً كوجود الكتابة عن الكاتب الثابتة العين المستقلّة بذاتها المستغنية عن الكاتب بعد فراغه. ولكن كوجود الكلام عن المتكلّم إن سكت بطل الكلام، بل كوجود ضوء الشمس في الجوّ المظلم الذات ما دامت الشمس طالعة، فإن غابت الشمس بطل الضوء من الجوّ، لكن شمس الوجود يمتنع عليه العدم لذاته. وكما أنّ الكلام ليس جزء المتكلّم، بل فعله وعمله أظهره بعد ما لم يكن. وكذا النور الذي يرى فيه الجوّ ليس جزء الشمس، بل هو انبجاس[١] وفيض. فكهذا الحكم في وجود العالم عن الباري جلّ ثناؤه ليس بجزء من ذاته، بل فضل وفيض يتفضّل به ويفيض، إلّا أنّ الشمس لم تقدر أن تمنع نورها وفيضها؛ لأنّها مطبوعة على ذلك بخلافه سبحانه، فإنّه مختار في أفعاله بنحو من الاختيار أجلّ وأرفع ممّا يتصوّر العوام، وأشدّ وأقوى من اختيار المتكلّم القادر على الكلام، إن شاء تكلّم وإن شاء سكت، فهو سبحانه

١ ـ في حاشية نسخة: الانبجاس الجريان، كما في التنزيل: «فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً». [الأعراف: ١٦٠]

إن شاء أفاض جوده وفضله وأظهر حكمته وإن شاء أمسك. ولو أمسك طرفة عين عن الإفاضة والتوجّه، لتهافتت السماوات وبادت الأفلاك وتساقطت الكواكب وعدمت الأركان وهلكت الخلائق ودثر العالم دفعة واحدة بلا زمان، كما قال عزّ وجلّ: «إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً»[1][2]

روى الشيخ الفقيه الصدوق محمّد بن علي بن بابويه القمي ـ طاب ثراه ـ في كتاب التوحيد، بإسناده عن مولانا الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»[3]. قال: لم يعنوا أنّه هكذا، ولكنّهم قالوا: قد فرغ من الأمر، فلا يزيد ولا ينقص. فقال الله جلّ جلاله تكذيباً لقولهم: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ». أ لم تسمع الله عزّ وجلّ يقول: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»[4][5]

وإن شئت مزيد بيان بكشف سرّ العيان وشروعاً في إثبات المعنى الثاني للحدوث بإقامة برهان، فاستمع.

[١٠] أصل
[في أن لا تغيّر في ذاته تعالى]

إنّ الله سبحانه لمّا أخرج العالم من كتم العدم الصريح والليس الصرف إلى فضاء الوجود وعرصة الشهود بأمر «كن»، بلا حرف ولا صوت ولا خوف من الفوت، صبّ[6] عليه سجال[7] الفيض ورشحات الجود، صبّة واحدة بلا حركة ولا زمان ولا آن ولا في مادة ولا حيّز ولا مكان؛ بل أبدع الزمان والآن والحركة بلا زمان ولا آن ولا حركة. واخترع المادّة وذا المادّة

---

١ ـ فاطر: ٤١.

٢ ـ راجع: الأسفار الأربعة، ج ٢، ص ٢١٦.

٣ ـ المائدة: ٦٤.

٤ ـ الرعد: ٣٩.

٥ ـ التوحيد للصدوق رحمه الله، ص ١٦٧.

٦ ـ صبّ الماء: سكبه.

٧ ـ سجال: جمع السجل، الدلو العظيمة فيها ماء.

والمكان وذا المكان من لا مكان الجود والبركة: «كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ»[١] دفعة إبداعية لا دفعة آنية، فإنّ الآن ظرف الزمان وحصوله بعد حصول الزمان، فحيث لا زمان فلا آن. فكما أنّ ذاته سبحانه وصفاته مقدّسة عن التغيّر، كذلك كلّ من قوله وفعله وأمره متعالٍ عن التغيّر والتبدّل، كما قال: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ»[٢]. إلّا أنّ بعض الموجودات لذاته متغيّر لا لتغيّر عارض له من غيره؛ بل حقيقته وجوهره يقتضيان التغيّر، كالزمان الذي هو ظرف المتغيّرات والحركة التي متغيّرة بالزمان، فإنّ ماهيّتهما[٣] الحدوث بعد الحدوث والتجدّد بعد التجدّد، فالزمان والحركة بهويّتهما الامتداديّتين الغير القارّتين فاضا من الحقّ الفيّاض فيضة واحدة في متن الواقع. وظرف الإبداع بالإحداث والإيجاد بلا زمان ولا امتداد، فصار ذلك سبباً لتجدّد الجدّدات وتعدّد الإفاضات. فالأمر من جانب الحقّ واحد ومن جانب العالم متعدّد.

مثال ذلك: أنّ الصبّاغ يدخل كلّاً من الثوب الأبيض والثوب الأزرق في الصبغ الأصفر، فيخرج أحدهما أصفر والآخر أخضر. وليس فعل الصفرة فيهما إلّا واحداً وإنّما اختلفا لسبب اختلاف القابليّة واختلاف القابلية في الأشياء إنّما هو مقتضى ذواتها التي يتميّز بها كلّ من الآخر وبها صار هو هو دون غيره[٤].

[١١] وصل
[في ربط الحادث بالقديم]

وإن سألت الحقّ، فالتغيّر الجبلي والتبدّل الذاتي إنّما سرى في الحركة من المتحرّكات وإنّما جرى في الزمان من الزمانيات. وذلك لأنّ الحركة إنّما هي من الصفات والنسبيّات، لأنّها عبارة عن الخروج من القوّة إلى الفعل، فلابدّ من تقوّمها بذات من الذوات تخرج من القوّة إلى الفعل. والزمان مقدار الحركة تابعة لها، والحركة والسكون من آثار الطبيعة.

---

١ ـ النحل: ٧٧.

٢ ـ القمر: ٥٠.

٣ ـ خ ل: ـ كذلك كلّ من قوله ... فإنّ ماهيتهما.

٤ ـ راجع: قرّة العيون، المقالة الخامسة، كلمة في كيفيّة الحادث الزماني بالقديم.

وقد تقرّر في محلّه أنّ كلّ ساكن فمن شأنه أن يتحرّك، فالطبيعة متحرّكة دائماً، إمّا بالفعل أو بالقوّة، فهي إذن أمر سيّال الذات متجدّد الحقيقة، إذ لو لم تكن سيّالة لم يكن صدور الحركة منها لاستحالة صدور المتجدّد عن الثابت، اللهمّ إلّا بتوارد أحوال عليها تصلح لأن تكون مع أصل الحركة معدّات لأجزائها يسقها[1] عليها بالزمان[2]. وأمّا العلّة المقتضية للحركة، فلابدّ أن تكون مع معلولها وليس فوق الطبيعة متغيّر، فالتغيّر الذاتي إنّما هو للطبيعة من غير تخلّل جعل بينه وبينها.

ولهذا يصحّ ارتباط الحادث بالقديم؛ لأنّ تجدّد الطبيعة عين ثباتها، كما أنّ قوّة المادّة الأولى عين فعليّتها، فالطبيعة بما هي ثابتة مرتبطة إلى الحقّ تعالى وبما هي متجدّدة يرتبط إليها تجدّد المتجدّدات وحدوث الحادثات. فالمتحرّك بالذات ليس إلّا الطبيعة السارية في العالم الجسماني بأمر الله سبحانه، بل الوجود الساري في العالم الإمكاني بإذن الله جلّ جلاله. وما سوى ذلك، فإنّما يتحرّك بالعرض وبالتبع، والسرّ فيه أنّ الممكن مفتقر في ذاته إلى موجد قيّوم مالك، لأنّه في حدّ ذاته معدوم هالك. وفي كلّ آن إلى فنائه الذاتي سالك[3]، فهو في كلّ آن معدوم في ذاته موجود بموجده مفتقر إلى وجوده الجديد بعد وجوده الفقيد، فلا يزال الله سبحانه يبدع ويصنع ويخلق على القرار والثبات. ويظهر إبداعه وصنعه وتكوينه على الاستيناف والسيلان بحسب الحركة والزمان التابعين للطبيعة، المتغيّرة بذاته، المتجدّدة بنفسها، المتكاملة بالحركات التي يظهر في المقولات.

[١٢] وصل

[في حدوث المدام للعالم]

فالحقّ سبحانه دفعي الإبداع والصنع، أحدي الأمر والتكوين، والعالم تدريجي الوجود،

---

١ ـ في حاشية نسخة: من ساق يسوق.

٢ ـ غ ل: لسبقها عليها تصلح بالزمان.

٣ ـ في حاشية نسخة:

به محض التفاقي زنده دارد آفرينش را　　　اگر نازى كند از هم فرو ريزند قالبها

[ديوان اشعار، نظيرى نيشابورى]

متبدّل الكون. وإنّما يوجد بأمر «كن»، فهو الله سبحانه: «إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ»، بلا حرف ولا صوت «فَيَكُونُ»[۱]. فإذا كان أشرف على العدم من ساعته لهلاكه الأصلي وبطلانه الذاتي. فيقول الله جلّ جلاله له ثانياً: «كن»، فيكون ثانياً بهذه الكلمة الثانية.

وإن شئت قلت: بتلك الكلمة الأولى بعينها، لأنّ أمر الله واحد وكلمته واحدة إلّا أنّها ثانية في حقّ العالم، فإذا كان ثالثاً أشرف على العدم من ساعته. فيقول الله عزّ سلطانه له ثالثاً: «كن»، فيكون ثالثاً وهكذا إلى ما شاء الله.

نظير ذلك ما ورد في الحديث: «إنّ الله تعالى يخاطب عباده من الأوّلين والآخرين يوم القيامة بمجمل حساب عملهم مخاطبة واحدة، يسمع منها كلّ واحد قضيّته دون غيره، ويظنّ أنّه المخاطب دون غيره، لا يشغله عزّ وجلّ مخاطبة عن مخاطبة، ويفرغ من حساب الأوّلين والآخرين في مقدار نصف ساعة من ساعات الدنيا»[۲].[۳]

[۱۳] وصل

[الحدوث ذاتي للعالم ومستور عن النظر]

ولو لم يكن العالم الجسماني بنفسه ساعياً إلى العدم، لانتفت الحركة من العالم. ويكون كلّ شيء على حاله من الثبات، ولا يكون أيضاً محو ولا إثبات. وقد شوهدت الحركات وأثبت المحو والإثبات، وإنّ الله سبحانه بالنسبة إلى الأكوان: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»[۴]، مع تعاليه عن تعدّد الشأن واليوم والوقت وأريد به هنا أصغر الأيّام وهو الآن. فكلّ مخلوق دائماً في حركة وتغيّر وتبدّل ومزيد وفي كلّ لحظة في خلق جديد و: «هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ»[۵]، «وَتَرَى الْجِبَالَ

---

۱ ـ مريم: ۳۵.

۲ ـ التفسير الصافي، ج ۲، ص ۱۲۷؛ الاعتقادات للمفيد ﷺ، ص ۷۵.

۳ ـ في حاشية نسخة: تحديد المقدار من الزمان على حسب أفهام الناس وإلّا فقد مرّ أنّه تعالى وصفاته وأفعاله منزّه عن المكان والزمان. والعنوان المذكور فيما بعد، كأنّه شرح إجمال كلام المعصوم ﷺ.

۴ ـ الرحمن: ۲۹.

۵ ـ البروج: ۱۳.

«تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ»[١]. كلّما توجّهت إلى العدم بذاتها رجعت إلى الوجود بإذن ربّها بأسرع إياب[٢][٣]. والناس من هذا التجدّد في ارتياب: «بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»[٤]، مع أنّهم يجدون في أنفسهم مزيداً بعد مزيد[٥]. وذلك لذهاب التجدّد عن النظر وتشابه المتجدّدات في الصور، ولأنّ أمر الله بالبقاء لا يمكن منها الفناء. فـ«أُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً»[٦] على اتّصال من غير تخلّل الفصل.

وفي تفسير علي بن إبراهيم المنسوب إلى أهل البيت عليهم السلام في قوله تعالى: «خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ»[٧]. قال: أي وقتين، ابتداء الخلق وانقضائه. وفي قوله تعالى: «فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ»[٨]. قال: في وقتين، ابتداء وانقضاء»[٩].

[١٤] وصل

[في أنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق]

قال بعض أهل المعرفة: «إنّ الله تعالى نفّس عن حقائق الممكنات بنفسه ما كانت تجده من كربة العدم ونفسه[١٠] عين وجودهم الإضافي، فهو تعالى في كلّ آن منفّس، والممكن فيه متنفّس. والسالك إلى الله بالفكر أو الذكر ينعدم في كلّ آن ويوجد مثله، فله في كلّ آن طريق. إذ لا يصحّ أن يتّفق الأشخاص من جميع الوجوه، وإلّا لما امتازت. وإذا اختلفت اختلفت الاستعدادات، وإذا اختلفت الاستعدادات اختلفت التجلّيات، وإذا اختلف التجليّات اختلفت

---

١ ـ النمل: ٨٨.

٢ ـ خ ل: بإذن بارئها سرع إياب. في حاشية نسخة: مفعول مطلق للرجوع.

٣ ـ إشارة إلى قوله تعالى: «إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ». [الغاشية: ٢٥]

٤ ـ ق: ١٥.

٥ ـ في حاشية نسخة: أي مزيد تجدّد.

٦ ـ البقرة: ٢٥.

٧ ـ فصّلت: ٩.

٨ ـ فصّلت: ١٢.

٩ ـ تفسير القمي، ج ٢، ص ٢٦٣.

١٠ ـ في حاشية نسخة: وهو المعبّر بالنفس الرحماني.

الطرق إليه والحقّ بالنسبة إليه: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»[۱]. والخلق بالنسبة إلى ما قبله في خلق جديد، فشؤون الحقّ عين أحوال الخلق».

أقول: وهذا أحد معاني قول من قال: «إنّ الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق»[۲]. ولعلّه إلى هذا أشير ما ورد في الحديث النبوي ﷺ: «إنّي لأجد نفس الرحمان من جانب اليمن»[۳]. فإنّ تأويل اليمن باليمين ـ أعني أقوى الجانبين الذي هو جانب الروحانيات ـ معروف.

[۱۵] فصل

[في أن لا تكرّر في الوجود]

قال بعض العارفين: «من علم الاتساع الإلهي علم أنّه لا يتكرّر شيء في الوجود، وإنّما وجود الأمثال في الصور يتخيّل أنّها أعيان ما مضى وهي أمثالها لا أعيانها، ومثل الشيء ما هو عينه»[۴]. فمن الله توجّهات دائمة وكلمات لا تنفد. أشار بالتوجّه إلى قوله عزّ وجلّ: «إِذَا أَرَدْنَاهُ» وبالكلمة كلمة «كُنْ»[۵] بالمعنى الذي يليق بجلاله.

وهذه التوجّهات والكلمات هي خزائن الجود لكلّ شيء يقبل الوجود، قال الله: «وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ»[۶]. وكلمات الله لا تنفد: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا

---

۱ ـ الرحمن: ۲۹.

۲ ـ في حاشية نسخة: أتى بالأنفاس وهو جمع النفس بفتحتين مع الكفاية النفوس، كأنّه إشارة إلى ما حقّقه مولاي الفيض ﷺ من أنّ الطرق كسائر أحوالهم من نفسه الرحماني. ويؤيّده إتيانه الحديث الوارد في شأن أويس القرني.

۳ ـ عوالي اللئالي، ج ۱، ص ۵۱؛ فيض القدير شرح جامع الصغير، ج ۴، ص ۱۷۰. وفي المصادر: بدل «جانب اليمن»، «قبل اليمن».

۴ ـ الفتوحات المكيّة، ج ۲، ص ۴۳۲.

۵ ـ في حاشية نسخة: قيل: هو الإرادة بعنوان التوجّه، كأنّه خاطب الشيء وأمر بالخروج من العدم إلى الوجود، لا أنّه تعالى أتى بالملفوظ المستلزم لصدور ثلاثة أشياء وأفعال منه في ذلك وهي الكاف المقدّم، ثمّ بعده النون والهيئة الجامعة لها، وصدور المتعدّد منه تعالى يستلزم تعدّد الجهات فيه بحسبه وهو محال منه وممنوع، كما بيّن في محلّه من الحكمة المتعالية الكشفية.

۶ ـ الحجر: ۲۱.

عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ»[١] و «يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ»[٢] من خزائن الجود وينابيع الوجود من غير أن تنقص؛ بل تزداد ويفيض.

ويظهر هذا المعنى في الماء الجاري، فإنّه في كلّ آن يدخل قطعة منه في النهر، ثمّ يذهب ويدخل أخرى مع أنّها يرى واحداً بالشخص دائماً. وفي النار المشتعلة من الدهن والفتيلة، فإنّه في كلّ آن يدخل منها شيء في تلك النارية وتصف بصفة النورية، ثمّ يذهب تلك الصورة بصيرورته هواء. هكذا شأن العالم بأسره، فإنّه يستمدّ دائماً من الخزائن الإلهيّة، فيفيض منها ويرجع إليها: «يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ»[٣].

ومن هذا عبّر الله سبحانه من المخلوقات بالكلمات[٤]؛ لأنّها يشبه الكلمات في النشأة الإنسانية في عدم القرار والثبات.

[١٦] وصل

[تمثيل]

وممّا يؤيّد هذا، أنّ ضوء الشمس إذا وقعت على اليد مثلاً، ثمّ زالت محاذاة اليد انعدم الضوء عنها البتّة ووقع على شيء آخر مكانها، ثمّ إذا حاذته اليد ثانياً عاد إليها الضوء.

وظاهر أنّ هذا الضوء الذي عاد إليها غير الضوء الذي كان عليها أوّلاً. وهذا دليل على أنّه يتجدّد عليها آناً فآناً حين استمرار المحاذاة أيضاً، فكذلك كلّ ما كان من شيء في شيء.

[١٧] وصل

[في أنّ أمر الله واحد]

فامداد الحقّ واصل إلى العالم في كلّ نفس. وفي التحقيق الأتمّ ليس إلّا أمر واحد يظهر له

---

١ ـ النحل: ٩٦.

٢ ـ المائدة: ٦٤.

٣ ـ الرعد: ٣٩.

٤ ـ في حاشية نسخة: وهذه الكلمات غير كلمات الله التامات التي هي الكمّل من عباده المكرمين الذين «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ» [انبياء: ٢٧]. والتعبير عنهم بها، لأنّهم يشبهون الكلمات في وعاء الدهر والنشأة الباقية ببقاء الله، فلها قرار وثبات كما لا يخفى.

بحسب القوابل ومراتبها واستعداداتها اختلافات، فيلحقه لذلك التعدّد والنعوت المختلفة، لا أنّ الأمر في نفسه متعدّد، أو وروده طار ومتجدّد. وإنّما التقدّم والتأخّر والتجدّد والتصرّم من أحوال الممكنات يوهم التجدّد والطريان، كما يوهم التعدّد. وذلك بحسب تغيّر الطبيعة وتعاقب الزمان وامتداده وبحسب مقايسة بعضها إلى بعض، لا بالنسبة إلى من يتعالى عن الوقوع في التغيّر.

ولذا قيل في قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»[۱]، إنّها شؤون يبديها، لا شؤون يبتديها[۲]، وإلّا لم يجتمع مع قوله: «جفّ القلم بما هو كائن»[۳]. فظهور الشؤون إنّما هو في أجزاء الزمان. وبالنسبة إلى العالم وجفاف القلم فيما وراء الزمان. وبالإضافة إلى الحقّ جلّ وعزّ في القدم. وتخصّص الزمانيات بوجوداتها في أوقاتها المعيّنة الجزئيّة، إنّما هو لتخصّص استعدادتها بها وتوقّف قابليتها عليها، كما أنّ قصور الأدنى من الموجودات عن بلوغه إلى درجة الأشراف، إنّما هو لقصور قابليّته عن القبول الأتمّ ونقصانه الذاتي عن الوجود الأقوم. وذلك لأنّ للموجودات درجات بعضها فوق بعض، فلا يتقدّم متقدّم إلّا بحقّ ولا يتأخّر متأخّر إلّا بحقّ لا يمكن أن يكون إلّا كذلك؛ لأنّ ذاته يقتضي ذلك واستحقاقه يوجب أن يكون هنالك.

قال مولانا الباقر ﷺ: «إنّ الله [تبارك وتعالى] الحليم العليم إنّما غضبه على من لم يقبل منه رضاه وإنّما يمنع من لم يقبل منه عطاه وإنّما يضلّ من لم يقبل هداه»[۴].

[۱۸] أصل

[في حدوث الروحانيات والجسمانيات]

إنّ من الموجودات أموراً إلهيّة روحانيّة تسمّى بعالم الأمر. وذلك كالعقل الذي خلق أوّلاً من نور الباري جلّ ذكره، والنفس التي خلقت من نور العقل والهيولى الأولى[۵] التي هي ظلّ

---

۱ ـ الرحمن: ۲۹.

۲ ـ يقال إنّ عبدالله بن طاهر سأل الحسين بن الفضل عن قوله تعالى: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، فأجاب: هي شؤون يبديها، لا شؤون يبتديها. فقام إليه وقبّل رأسه. [فتح الباري، ج ۱۱، ص ۴۳۱]

۳ ـ مسند أحمد، ج ۱، ص ۳۰۷؛ سبل السلام، ج ۱، ص ۱۷۶؛ شرح أصول الكافي، ج ۸، ص ۱۵.

۴ ـ الكافي، ج ۸، ص ۵۳، ح ۱۶.

۵ ـ في حاشية نسخة: المراد بها غير المصطلح عند الطبيعيين، لأنّها من الأمور الجسمانية؛ بل ما هو ظلّ النفس

←

النفس وفيها الصور.

ومنها أمور جسمانية تسمّى بعالم الخلق، كالسماوات والأرضين وما فيها من الأجسام. قال الله عزّ وجلّ: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ»(١)، إشارة إلى العالمين:

أمّا الروحانيات؛ فحدوثها دفعة واحدة منظّمة بلا زمان ولا مكان ولا هيولى ذات كيان(٢)، بل بقوله «كن» كان، كما قال سبحانه: «وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ»(٣). وقال عزّ وجلّ: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ»(٤). ومثال ذلك: حدوث البرق، وإشراق نور الشمس في الهواء، وإضاءة الأبصار، ورؤية الأشياء دفعة واحدة بلا زمان(٥).

وأمّا الجسمانيّات؛ فإنّما أحدثت وخلقت على التدريج مع الأوان، وممرّ الدهور والأزمان، ومدّة حدوثها وبقاؤها واحدة. وذلك لأنّ حدوث هيولى الكلّ ـ أعني الجسم المطلق المسمّى بالماء الذي هو أوّل المخلوقات الجسمانية الزمانية ـ منطبق على الحركة والزمان.

ومنها وفيها وبها خلق سائر الأكوان وذوات الزمان والمكان. وقد أتى عليه دهر طويل إلى أن تمحّض وتميّز اللطيف منها من الكثيف، وإلى أنّ قبل الأشكال الفلكيّة الكرويّة الشفافة، وتركّب بعضها جوف بعض وإلى أن استدارت أجرام الكواكب النيّرة وركّزت مراكزها وإلى أن تميّزت الأركان الأربعة وترتّبت مراتبها وانتظمت. قال الله سبحانه: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ»(٦)، وقال: «وَإِنَّ يَوْماً عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ»(٧).

← وفيها صور الأشياء، وهو المراد عنه من قال بالنفوس المنطبعة فيها صور الأشياء، كما أنّ المراد بالصورة غير المقوّمة للهيولى بالفعل، فإنّها من مبادي الأمور الطبيعيّة وكأنّه تشبيه للأمر الروحاني بالجسماني لتشحيذ الذهن وأين هذا من ذاك؟!

١ ـ الأعراف: ٥٤.

٢ ـ في حاشية نسخة: أي كون ووجود بنفسها.

٣ ـ القمر: ٥٠.

٤ ـ النحل: ٧٧.

٥ ـ في حاشية نسخة: في المثال نظر؛ لأنّ دفعيتها ولو كانت واحدة إلّا أنّها زمانية. نعم، يتخيّل المتخيّل أنّها دفعية بالدفعة الواحدة الغير الزمانية، بل حدثت عن التدريج مع الأوان الخفية الدقيقة في غاية اللطافة، ويمكن أن يكون هذا لتقريب الأذهان بتصوير الروحانيات ليعلم التطابق بين العالمين في بعض الوجوه الظاهرة.

٦ ـ الأعراف: ٥٤.

٧ ـ الحجّ: ٤٧.

ألا ترى أنّ جسد الإنسان الذي يخلق من دم الطمث[1] والمني في الرحم؟ كيف يتمحّض ويتميّز، ويصير بعضه عظاماً صلبة، وبعضه لحماً أحمر، وبعضه شحماً دسماً أصفر، وبعضه عروقاً مجوّفة إلى غير ذلك في مدّة معلومة وأجل مسمّى!

كذلك أجزاء تمام عالم الخلق، فمن عجز فهمه عن تصوّر كيفيّة تكوين الجسد عن دم الطمث، فهو عن تصوّر كيفيّة تركيب الأفلاك والأرضين أبعد وهو بهما أجهل. قال الله تعالى: «لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ»[2].

[١٩] وصل
[في تقدّم الباري سبحانه على الموجودات]

وليعلم، أنّ الأركان الأربعة متقدّمة الوجود على مولّداتها بالأيّام والشهور والسنين. والأفلاك متقدّمة الوجود على الأركان بالأزمان والأدوار والقرانات، وعالم الأرواح متقدّم الوجود على عالم الأفلاك بالدهور الطوال التي لا تحصى، [و] الباري سبحانه متقدّم الوجود على الكلّ، كتقدّم الواحد على جميع العدد من غير أوقات ولا أمد.

[٢٠] وصل
[في بعض ما ورد من الأخبار في حدوث العالم الدائمي]

روى أبو أحمد عبدالعزيز بن يحيى الجلودي في كتاب الخطب لأمير المؤمنين عليه السلام: أنّ رجلاً قال لأمير المؤمنين عليه السلام في حديث طويل: «... كم مقدار ما لبث عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء؟ فقال علي عليه السلام: أ تحسن أن تحسب؟ قال الرجل: نعم. قال عليه السلام للرجل: لعلّك لا تحسن أن تحسب. قال الرجل: بلى، إنّي أحسن[3]. قال علي عليه السلام: أ فرأيت لو كان صبيب خردل[4] في الأرض، حتّى سدّ الهواء وما بين الأرض والسماء، ثمّ أذن لمثلك على

---

١ ـ طمثت المرأة: حاضت.

٢ ـ غافر: ٥٧.

٣ ـ في بحار الأنوار: «بلى، إنّي لأحسن أن أحسب».

٤ ـ في بحار الأنوار: «أ رأيت إن صبّ خردل».

ضعفك أن تنقله حبّة حبّة من مقدار المشرق إلى المغرب، ثمّ مدّ في عمرك وأعطيت القوّة على ذلك، حتّى تنقله وأحصيته لكان ذلك أيسر من إحصاء عدد أعوام ما لبث عرشه على الماء من قبل أن يخلق الله الأرض والسماء. وإنّما وصفت لك عشر عشر العشير من جزء من مائة ألف جزء وأستغفر الله عن التقليل والتحديد ...»[۱] [۲].

وروى هذا الحديث أيضاً الحافظ رجب البرسي الحلّي ﷺ في كتابه المسمّى بمشارق الأنوار[۳].

وروى الشيخ المفيد ـ طاب ثراه ـ في كتاب الأمالي عن جابر بن يزيد، أنّه قال: «سألت أباجعفر محمّد بن علي الباقر عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: «أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ»[۴]. فقال عليه السلام: «يا جابر، تأويل ذلك أنّ الله عزّ وجلّ إذا أفنى هذا الخلق وهذا العالم، وأسكن أهل الجنّة الجنة وأهل النار النار، جدّد الله عزّ وجلّ عالماً غير هذا العالم، وجدّد خلقاً من غير فحولة ولا إناث يعبدونه ويوحّدونه، وخلق لهم أرضاً غير هذه الأرض وسماء غير هذه السماء تظلّهم، لعلّك ترى أنّ الله عزّ وجلّ إنّما خلق هذا العالم الواحد، وترى أنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق بشراً غيركم. بلى! والله لقد خلق الله تبارك وتعالى ألف ألف عالم وألف ألف آدم، أنت في آخر تلك العوالم وأولئك الآدميّين»[۵].

ولعلّ صدر الحديث إشارة إلى عالم المثال التابع لهذا العلم. وقوله: «أرضاً غير هذه الأرض وسماء غير هذه السماء».

وأمّا ذيله: فإمّا إشارة إلى القرون السالفة والأمم الماضية، وإمّا إشارة إلى عالم المثال

---

۱ ـ بحار الأنوار، ج ۵۴، ص ۲۳۱، ج ۱۸۸؛ إرشاد القلوب، ج ۲، ص ۳۷۷.

۲ ـ في حاشية نسخة: هذا الكلام بحسب فهم السائل الذي يدّعي صناعة الحساب، وإلّا لكان الأولى أن يقول عليه السلام في مقابله: واستغفر الله من التحديد لما لا يتناهي حدّه، لأنّ المفهوم من عبارته عليه السلام وجود التحديد الكثير، فلو صحّ هذا الكلام، لكان للتحديد تناه ولا حدّ متناه.

۳ ـ مشارق أنوار اليقين، ص ۸۴.

۴ ـ ق: ۱۵.

۵ ـ لم أجد هذا الحديث في الأمالي للمفيد ﷺ، فراجع: التوحيد للصدوق ﷺ، ص ۲۷۷؛ الخصال، ج ۲، ص ۶۵۲؛ بحار الأنوار، ج ۵۴، ص ۳۲۱.

السابق على هذا العالم. ويؤيد الثاني قوله سبحانه في الحديث الآتي: «ولم أخلق من الطين غيره».

وأمّا تأويل الخلق الجديد بالمثال، فلا ينافي ما مرّ من تأويله بالشؤون؛ لأنّ القرآن ذو وجوه من جهة التأويل وكلّ وجه منه حسن جميل.

وروى ذيل هذا الحديث أيضاً الشيخ الفقيه الصدوق، محمّد بن علي بن بابويه القمي ـ رحمة الله عليه ـ في الخصال من قوله: لعلّك ترى إلى آخره[1].

وروي عنه أيضاً أنّه روى عن النبي ﷺ، أنّه قال: «إنّ موسى سأل ربّه عزّ وجلّ أن يعرّفه بدأ الدنيا منذ كم خلقت، فأوحى الله تعالى إلى موسى: تسألني عن غوامض علمي؟ فقال: يا ربّ، أحبّ أن أعلم ذلك. فقال: يا موسى، خلقت الدنيا منذ مائة ألف عام عشر مرّات وكانت خراباً خمسين ألف عام، ثمّ بدأت في عمارتها فعمرتها خمسين ألف عام، ثمّ خلقت فيها خلقاً على مثال البقر يأكلون رزقي ويعبدون غيري خمسين ألف عام، ثمّ أمتّهم كلّهم في ساعة واحدة، ثمّ خرّبت الدنيا خمسين ألف عام، ثمّ بدأت في عمارتها فمكثت عامرة خمسين ألف عام، ثمّ خلقت فيها بحراً فمكث البحر خمسين ألف عام لا شيء مجاجاً من الدنيا يشرب، ثمّ خلقت دابة وسلّطتها على ذلك البحر فشربته بنفس واحد، ثمّ خلقت خلقاً أصغر من الزنبور وأكبر من البق[2] فسلّطت ذلك الخلق على هذه الدابة فلدغها وقتلها فمكثت الدنيا خراباً خمسين ألف عام، ثمّ بدأت في عمارتها فمكثت خمسين ألف سنة، ثمّ جعلت الدنيا كلّها آجام القصب وخلقت السلاحف[3] وسلّطتها عليها فأكلتها حتّى لم يبق شيء، ثمّ أهلكتها في ساعة واحدة فمكثت الدنيا خراباً خمسين ألف عام، ثمّ بدأت في عمارتها فمكثت عامرة خمسين ألف عام، ثمّ خلقت ثلاثين آدم ثلاثين ألف سنة من آدم إلى آدم ألف سنة فأفنيتهم كلّهم بقضائي وقدري، ثمّ خلقت فيها خمسين ألف ألف مدينة من الفضّة البيضاء، وخلقت في كلّ مدينة

---

۱ ـ الخصال، ج ۲، ص ۶۵۲.

۲ ـ البقّ: واحدته البقّة، جنس حشرات من فصيلة البقيات تمتصّ دم الإنسان.

۳ ـ السُلَحْفاة والسِلَحْفاة والسُلَحْفا والسُلَحْق: دابّة برّيّة وبحريّة ونهريّة، لها أربع قوائم تختفي بين طبقتين عظميّتين (لاک پشت).

مائة ألف ألف قصر من الذهب الأحمر فملأت المدن خردلاً عند الهواء يومئذ ألذّ من الشهد وأحلى من العسل وأبيض من الثلج. ثمّ خلقت طيراً واحداً أعمى وجعلت طعامه في كلّ سنة حبة من الخردل أكلها حتّى فنيت. ثمّ خرّبتها فمكثت خراباً خمسين ألف عام. ثمّ بدأت في عمارتها فمكثت عامرة خمسين ألف عام. ثمّ خلقت أباك آدم عليه السلام بيدي يوم الجمعة وقت الظهر ولم أخلق من الطين غيره وأخرجت من صلبه النبي محمّداً صلى الله عليه وآله».

وروى هذا الحديث أيضاً صاحب كتاب جامع الأخبار في كتابه[1].

وتحت مباني ألفاظ هذه الأخبار معاني من الأسرار وغواض وأغوار لا نهتدي إلى رموزها ولا يمكننا أن نعثر على كنوزها. وليس لنا منها إلّا الاعتراف بالعجز والقصور سوى ما نفهم من ظاهرها من طول امتداد مدد الأزمنة والدهور من جهة البدأ العالم وكثرة أعداد بني آدم.

وهذا الذي حقّقناه في معنى حدوث العالم هو الذي أطبق عليه الراسخون في العلم من الحكماء والعارفين ثلة من الأولين وثلة من الآخرين، كما يظهر من تتبّع كلمات أساطين الحكمة وشيوخ المعرفة من المتقدّمين والمتأخّرين.

وقد أورد صاحب كتاب الملل و النحل في كتابه من كلمات الأوائل في هذا الباب ما هو غنية لأولي الألباب[2]. وأمّا ما في كلام أهل المعرفة من ذلك نظماً ونثراً، فهو أكثر من أن يحصى.

ولنختم الكلام حامدين لله مصلّين على أهل العصمة عليهم السلام. فقد كمل لبّ القول في معنى الحدوث وتمّ. والحمد لله وحده وصلّى الله على محمّد وآله وسلّم أجمعين إلى يوم الدّين.

---

١ ـ جامع الأخبار، ص ١٢٥؛ بحار الأنوار، ج ٥٤، ص ٣٣٠.

٢ ـ الملل والنحل، المجلّد الثاني. راجع: رسالة حدوث العالم لصدرالدين الشيرازي، ص ١٥٢.